Dirassat & Abhath
The Arabic Journal of Human and Social Sciences

مجلة دراسات وابحاث
المجلة العربية في العلوم الإنسانية والاجتماعية

EISSN: 2253-0363
ISSN : 1112-9751

أسئلة الهوية في كتابات الشيخ محمد البشير الإبراهيمي

Questions of identity in the writings of Sheikh Muhammad al-Bashir al-Ibrahimi

رزيق بوعلام 1

أستاذ محاضر (أ)

جامعة محمد البشيرالإبراهيمي– برج بوعريريج –

boualem.rezig@univ-bba.dz

المؤلف المرسل: رزيق بوعلام الإيميل: boualem.rezig@univ-bba.dz

تاريخ الاستلام: 2023-01-21 **تاريخ القبول :** 2023-03-24

الملخص:

عمل الاستعمار الفرنسي على طمس الهوية الجزائرية الاسلامية ، وعبث بمقوماتها الأساسية من خلال زعزعة أركان العقيقة الصحيحة ، وحاول استبدال اللغة العربية بالفرنسية أبعادا للأجيال عن لغة الأجداد ليصبحوا مغتربين في وطنهم ، لكن الله عزوجل أنفذ وعده ببعث مجديين كما ورد في الحديث ليحوا الهوية العربية الاسلامية وإزالة الشوائب التي لحقت بالأمة جراء ما فعله الاستعمار بذاكرة الأمة ، وهنا انبرى الشيخ البشير الابراهيمي لكل الشبهات والشوائب من خلال كتاباته وخطبه وجهوده في إصلاح المجتمع الجزائري وفي هذا السياق جاء هذا المقال الموسوم أسئلة الهوية في كتابات الشيخ البشير الابراهيمي لتجيب عن أسئلة جوهرية تمثلت في:- ما مدى أهمية حضور الهوية الثقافية في المحافظة على ديمومة المجتمع؟ وكيف ساهمت كتابات البشير الإبراهيمي في ترميم دعامات الهوية الجزائرية؟ وبأي وعي تعامل الإبراهيمي مع موضوع الهوية الثقافية؟.

الكلمات المفتاحية :

الهوية الجزائرية ، جمعية العلماء المسلمين ، العقيدة الإسلامية ، الذاكرة الجماعية ، التاريخ الاسلامي .

Abstrac

French colonialism has worked to eradicate the Algerian Islamic identity, and has tampered with its basic foundations by shaking the pillars of the correct faith. Indeed, it attempted to replace the Arabic language with French, distancing generations from the language of the ancestors to become expatriates in their homeland. However, Allah the Almighty fulfilled His promise to send the reformers, as mentioned in the hadith, to revive religion and the Arab Islamic nation, removing the blemishes that befell the nation as a result of the evils of colonialism. Hence, Sheikh El-Bachir El-Ibrahimi came to fight colonial evils through his writings, speeches, and efforts to reform Algerian society. Thus, the present paper attempts to put flesh on the bones of the following questions: How important is the presence of cultural identity in maintaining the sustainability of society? How did the writings of El-Bachir El-Ibrahimi contribute to the restoration of the pillars of Algerian identity? With what awareness did Ibrahimi deal with the issue of cultural identity?

Keywords: Algerian identity; Muslim scholars association; Islamic faith; collective memory;

Islamic history

مقدمة:

سعى الاستعمار الفرنسي منذ دخوله أرض الجزائر إلى القضاء على مقومات الهوية الجزائرية باعتبارها نتاج ثقافي، وروح الأمة وعرقها النابض، وصمام أمان يحميها من الاندثار والذوبان في ثقافة الآخر، فحارب اللغة العربية من خلال غلق معاهد التعليم التي أُنشئت لتعليم أبناء الجزائريين، وانحصر تعليم اللغة العربية في الكتاتيب القرآنية والزوايا، وبعض مدارس التعليم العربي الحر، وجعل التعليم باللغة الفرنسية موجها لبعض أبناء الجزائريين بغرض تكوين الموظفين وتقليدهم مناصب في الإدارة الفرنسية، كل هذا كان يهدف إلى إبعاد الجزائريين عن اللغة العربية، وتطبيق سياسة فرنسة الشعب، كما حارب الاستعمار الدين الإسلامي باعتباره مقوم من مقومات الهوية الجزائرية، وأهم دعائم هذه الأمة، ولأجل ذلك قام المستعمر بتحويل المساجد إلى كنائس، وتشجيع التبشير المسيحي، ومصادرة الأوقاف الإسلامية، وكل المعاهد الإسلامية، وبالموازاة مع ذلك زرع بعض العادات السيئة في العقيدة الإسلامية، كالشعوذة والدجل، وغيرهما من العادات التي تنخر جسد الدّين، ولم يغفل الاستعمار بالإضافة إلى محاربته للغة العربية والدين الإسلامي على محاربة الذاكرة الجماعية من خلال رفض تعليم تاريخ الجزائر، وتشويهه، وتزويره، ودس الأفكار الخاطئة في عقول الجزائريين، ومحاولة إقناعهم بأن الجزائر ما هي إلا أرض تناوب على استعمارها العديد من الدول والإمبراطوريات، وكل ما سبق ذكره قام به الاستعمار قصد القضاء على الهوية الثقافية للجزائريين، وبالتالي بتر الأوصال التي تربط الجزائر بالوطن العربي من جهة وبالعالم الإسلامي من جهة ثانية، وبتاريخها المجيد وماضيها التليد من جهة ثالثة، فغدت الجزائر في عزلة عن العالم، غير واعية بالتحولات التي تطرأ من حولها، إلى أن أخرج الله منرحم هذه الأمة رجالا غيورين على لغتهم ودينهم، وهوية بلادهم، فحاولوا إرجاع الجزائري إلى أصوله من خلال ترميم دعامات هويته، وكسر العزلة التي ضربها الاحتلال حوله، وتجلّى ذلك في انجازات جمعية العلماء المسلمين، وما قام به روادها الذين امتطوا فرس الكتابة ليعلنوا حربا على كل الأساليب الشنيعةالتي مارسها الاحتلال بهدف طمس هوية شعب له من الرصيد الثقافي ما يحفظ له بقاؤه، ويمنعه من الانحلال في ثقافة غريبة عنه.

وتعد كتابات الشيخ البشير الإبراهيمي وجها من أوجه المقاومة الفكرية والثقافية للاحتلال، من خلال توجيهها وفق خارطة طريق، بعد تشخيص داء الأمة ووصف العلاج المناسب، والذي تمثل في بعث ونشر اللغة العربية وتعليمها لأبناء الجزائر وبناتها، لأنه كان متيقنا بأن اللغة جزء من كيان الأمة، وأن الأمة تفقد هويتها بفقدان لغتها، كما عمل على نزع الشوائب التي لحقت بالدّين، فسلط قلمه لمحاربة الطرقية وما انجرّ عنها من أفكار غريبة عن الإسلام، وعلى جبهة ثالثة كان يراع الشيخ البشير الإبراهيمي ينفث حمما في وجه من شوّه تاريخ الجزائر،وفي هذا السياق جاءت مداخلتنا الموسومة بـ:"**إبداع الهوية الثقافية في كتابات الشيخ محمد البشير الإبراهيمي**."،لتجيب عن أسئلة جوهرية تمثلت في:كيف ساهمت كتابات البشير الإبراهيمي في الحفاظ على الهوية الثقافية وتأصيلها؟ وما هيخارطة الطريق التي اتبعها لأجل ذلك؟ وهل

انتصرت كتاباته لهوية الأنا أمام الآخر؟ وما هي الدروس والعبر التي نستشفها من كتابات الإبراهيمي لمواجهة الاستعمار الثقافي الجديد المضمر وراء قناع العولمة؟

1- مفاهيم نظرية:

1.1 مفهوم الهوية:

تعدد مفهوم الهوية بتعدد مجالات اهتماماتها، فهي تدخل ضمن اهتمامات علم النفس، والأدب وعلم الاجتماع والفلسفة و الأنثروبولوجيا، والكثير من ميادين العلوم الإنسانية والاجتماعية، وما زاد من ضبابية المصطلح هو تلك العلاقة الوشيجة بين الهوية والثقافة، مما ساهم في خلق نوع من التلبيس وطمس للدلالات، وفي هذا الشأن يذهب **محمد العربي ولد خليفة** في تحديد العلاقة بين المفهومين بقوله:" إن العلاقة بالثقافة تبدو أكثر وثوقا، فهناك ما يقترب من التطابق بين المفهوم الذي تحدده للثقافة والمفهوم الذي تحدده للهوية."[1]،كما أن المفهوم يحيل عند **عبد الله الغذامي**إلى"السمات والخصائص الثقافية المميزة للناس في العنصر والعرق والقومية والجنوسة والمعتقد."[2]، ويقصد بها في المفهوم الفلسفي"حقيقة الشخص الذي تميزه عن غيره."[3]، ومما سبق يمكننا القول أن الهوية هي ذلك النسيج المعقد من العلاقات بين العناصر المادية واللاّمادية التي تتكامل فيما بينها لتصنع تميز الفرد عن سواه.

2.1 مفهوم الثقافة:

يصعب ضبط مفهوم جامع مانع للثقافة بسبب تعدد الخلفيات الأيديولوجية للمفكرين، وكذا التحولات التي شهدها المصطلح عبر التاريخ، وتداخل المفهوم مع بعض المفاهيم التي لها علاقة بالموضوع، كمفهوم الحضارة ومفهوم الهوية والشخصية وغيرها من المفاهيم ذات علاقة بالثقافة،وفي هذا الصدد يذهب عالم الأنثروبولوجيا**إدوارد تايلور**في تحديد مفهوم الثقافة بقوله:"ذلك الكل المعقد الذي يتضمن المعتقدات والفن والقانون والأخلاق والعادات وأي قدرات أخرى يكتسبها الإنسان كعضو في المجتمع."[4]، فالثقافة بهذا المفهوم مكتسبة عن تفاعل الإنسان مع جماعته من جهة ومع البيئة المحيطة به من جهة ثانية لأجل إيجاد قوانين يتم الاتفاق عليها وقبولها، لصنع تميزهم وضمان بقائهم، ولهذا لا يمكننا تخيل مجتمع دون ثقافة تميزه، كما لا يمكننا تخيل ثقافة دون مجتمع يحويها، وبالرجوع إلى مفهوم المصطلح عند المفكرين العرب نجده يرتبط بالمعرفة والعلم، فمصطلح المثقف يطلق على الشخص الذي يملك كما هائلا من المعرفة والتحصيل العلمي، وفي هذا الشأن يرى **مالك بن نبي** أن الثقافة"مجموعة الصفات الخُلقية والقيم الاجتماعية التي تؤثر في الفرد منذ ولادته، وتصبح لاشعوريا العلاقة التي تربط سلوكه بأسلوب الحياة في الوسط الذي ولد فيه."[5]، أي أن سلوك الفرد مرتبط بالبيئة التي نشأ فيها من جهة وبالتربية التي تلقاها وصقلت شخصيته من جهة أخرى، ويذهب **العربي ولد**

خليفة في تحديد أهمية وجود الثقافة في حياة الإنسان بقوله:" الثقافة موجودة دائما كبطانة ظاهرة أو ضمنية في كل أنماط الحياة والتفكير وكل ما يتعلق بالمعاني والدلالات وأشكال الاتصال وما يرجع للهوية والانتماء."(6)، كما ارتبط المصطلح عند المفكرين الغربيين بجميع مناحي الحياة وسلوك المجتمعات، وما صنعه عقل الإنسان من اختراعات واكتشافات، وكذا العلاقات والقوانين التي تنظم حياة الأفراد والجماعات، وبالرجوع إلى ما سبق يمكننا القول بأن الثقافة هي ذلك الكل المعقد الذي يكتسبه الإنسان عن طريق التفاعل مع أفراد جماعته ومع بيئته ليتناقله الأجيال، ويكون بذلك معيارا يحدد سلوكها وطريقة عيشها وكذا نظرتها إلى الحياة.

3.1 مفهوم الهوية الثقافية:

يرى**محمد عابد الجابري**" أن للهوية الثقافية ثلاث دوائر هي الهوية الفردية، والهوية الجهوية والهوية الوطنية، وأن العلاقة بين تلك الدوائر هي علاقة مد وجزر، فهي دائمة الحركة والتحول تضيق وتتسع وتنكمش وتنتشر حسب ظروف وأنماط الصراع التي تتأثر بسعي الأنا والآخر إلى تحقيق المكاسب وتعظيم المصالح."(7)، فهي إذن مجموع التراكمات التي اكتسبها الإنسان منذ ولادته، من عادات وتقاليد ومعارف وخبرات تكاملت فيما بينها وشكلت شخصيته وطبيعته التي تميزه عن غيره، ولها في الغالب ثلاث مكوّنات هي الدين والمجتمع والوطن، ويمكن للهوية الثقافية أن تختل في غياب أحد مكوناتها، ولهذا تسعى المجتمعات إلى تعزيز الانتماء من خلال تقوية الروابط التي تربط الفرد بمكونات هويته الثقافية لحمايته من الاغتراب الثقافي، وضمان استمرارية وجوده وسط تيار العولمة الجارف، في حين يرى **أحمد بن نعمان** أن الهوية الثقافية لأي أمة من الأمم هي" مجموعة الصفات أو السمات الثقافية التي تمثل الحد الأدنى المشترك بين جميع الأفراد الذين ينتمون إليها، والتي تجعلهم يعرفون ويتميزون بصفاتهم تلك عما سواهم من أفراد الأمم الأخرى."(8)، وتجدر الإشارة إلى أن السمات الثقافية في تحول دائم بفعل تفاعل الثقافات، أو ما يعرف بالمثاقفة، وفي نفس السياق يربط الأستاذ **التويجري عبد العزيز** الهوية الثقافية بالشخصية الوطنية في قوله:" القدر الثابت والجوهري والمشترك من السمات والقسمات العامة التي تميز حضارة هذه الأمة عن غيرها من الحضارات والتي تجعل للشخصية الوطنية أو القومية طابعا تتميز به عن الشخصيات الوطنية والقومية الأخرى."(9)،وبهذا المفهوم تتجلى إمكانية حضور العديد من الهويات الثقافية داخل الوطن الواحد، وتطفو إلى السطح عند كل تفاعل بينها، ولهذا وجب التنبه إلى أهمية المحافظة على الهوية الثقافية التي تميزنا، من خلال الاعتزاز بالانتماء إليها، وتقوية ركائزها، خاصة في وقتنا الراهن الذي تفرض فيه ثقافة القوي على الضعيف، والغزو الفكري المختفي وراء قناع العولمة، كما أن ديمومة المجتمعات و استمراريتها مرهون بمدى محافظتها على مقومات هوياتها،

وذلك من خلال نشر الوعي في صفوف الأفراد والجماعات، ونبذ الفرقة و الوقوف في وجه الحملات التي تريد تشويه هويتنا الثقافية.

2.تجليات الهوية الثقافية في كتابات محمد البشير الإبراهيمي:

سخّر الشيخ البشير الإبراهيمي قلمه في سبيل المحافظة على الهوية الثقافية للجزائريين، بعدما حاول الاستعمار الفرنسي يائسا استبدالها بهوية أجنبية، باستعمالهلأساليب وطرق يسعى من ورائها القضاء على الهوية الثقافية للشعب الجزائري، فقد حارب الإبراهيمي على عدّة جبهات متسلحا في ذلك بسلاح العلم والإيمان، فمنذ تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في الخامس من شهر مايو سنة 1931ظل يسعى من خلال خطبه وكتاباته إلى تحقيق الأهداف التي قامت عليها الجمعية، والتي تمثلت في تطهير الدين الإسلامي من الخرافات التي لحقت به، وإحياء اللغة العربية وتشجيع تعليمها لأبناء وبنات الجزائريين ، والتصدي لسياسة التنصير، والمحافظة على الذاكرة الجماعية، ثم العمل من أجل الاستقلال كهدف أسمى، وكل هذه الأهداف ترمي إلى الحفاظ على الهوية الثقافية للجزائريين، وإكسابهم مناعة جماعية يحافظون من خلالها على انتمائهم ووجودهم، فقد تفطن الإبراهيمي إلى خطورة الاستعمار الثقافي على الشعب الجزائري، ولذلك أعدّ خطة محكمة للتصدي لهذا الغزو الثقافي تمثلت في تسخير قلمه للكتابة في مواضيع لها علاقة بالهوية الثقافية وتمثلت فيما يلي:

1.2 موضوع اللغة:

عملت فرنسا على وأد اللغة العربية، وإبعاد المجتمع عن هويته وأصالته ودمجه في الثقافة الفرنسية، باعتبار العربيةحاملة للدين الإسلامي ومكوّنا أساسيا للهويةالوطنية، فما كان لجمعية العلماء المسلمين إلا أن"عملت بدأب ومثابرة، عن طريق صحفها ومدارسها، ونواديها، ومساجدها، التي أنشأتها في طول البلاد وعرضها، على توجيه الشعب الجزائري توجيها عربيا إسلاميا، يتفق مع مقومات الشخصية القومية للجزائر. وبذلك ساهمت مساهمة كبيرة في القضاء نهائيا على سياسة التجنيس والإدماج، والفرنسة، والتنصير."(01)، وعلى هذا الأساس فقد جعل الإبراهيمي من الكتابة سلاحا ومن الكلمات رصاصا، لأجل إحداث ثورة في مجتمع أريد له الضياع، ولم يتوان في الدفاع عن اللغة العربية من خلال إنشاء مدارس التعليم العربي الحر،ونشر مقالات صحفية في جرائد الجمعية تدعو إلى الاحتفاء باللغة العربية والالتفاف حولها، والنيل من كل من أراد بها وبالإسلام شرا، كما هو الحال في بيانالمجلس الإداري لجمعية العلماء المنعقد في الثالث عشر من سبتمبر 1948موالمتضمن ردا شديد اللهجة على دعاة«حركة الانتصار للحريات الديمقراطية»،حيث يقول:"وكما امتحن الله اللغة العربية بهذه الرطانات الناشزة ليقيم من

عيّها دليلا على فصاحتها، ومن هجنتها برهانا على صراحتها، كما يشهد قبح الشوهاء لجمال الحسناء، إذا توافقتا في مشهد، كذلك ابتلى جمعية العلماء بجمعيات يعارضون أعمالها، ويسفهون آراءها، ويطمسون حسناتها، وينتقصون جلائل آثارها، ويعارضون بأقوالهم أفعالها، فلا تكون عواقبهم إلا كعواقب من يترصد للإسلام الأذى، ويبيت للعربية المحو والإبادة."[11]، فقد استغرب الإبراهيمي موقفهم المعادي لأعمال جمعية العلماء، والذي هو في حقيقته معاداة للعروبة والإسلام،في الوقت الذي كان ينتظر منهم خدمة الدين واللغة لأن الفطرة السليمة للإنسان تقول ذلك، ويواصل الإبراهيمي تقديم انتقاده اللاّذع لهؤلاء بقوله:"ولكن غير المعقول وغير الطبيعي أن تقوم جماعة تحسب في عداد المسلمين وتعد من أبناء العرب، فتجاهر بالتنكر للإسلام وللعروبة، وتقيم العراقيل في سبيل انتشارها، وتحارب الداعين إليهما والمدافعين عنهما، وتكون- من حيث تدري أو من حيث لا تدري-عونا لأعدائهما عليها."[12]، فهو يدعوهم إلى أن يكونوا يدا على العدو لا على إخوانهم من بني وطنهم، وأن يخدموا اللغة باعتبارها سببا في قيام الحضارة، لا أن يكونوا معولا يستعمله المستعمر لهدمها، وأن يفوّتوا عليه فرصة الاستمتاع بتناحر الإخوة، مذكرا إياهم بشرف اللغة العربية، وسمو شأنها في خطاب ألقاه بمناسبة اجتماع أعضاء الجمعية، ضمّنه تبيان فضل العربية على العلم والمدنية، وأثرها في الأمم غير العربية بقوله:"أيها الإخوة انشقت اللغة العربية من أصلها السامي في عصور متوغلة في القدم وجرت في ألسنة هذه الأمة التي اجتمعت معها في مناسب الجد واروومات الفخر...وفي هذه اللغة من المزايا التي يعز نظيرها في لغات البشر الاتساع في التعبير عن الوجدانيات والوجدان أساس الحضارات والعلوم كلها."[13]، وفي سياق حديثه عن فضل اللغة العربية في قيام حضارة اليوم، ومساهمتها في ما وصلت إليه الأمم من تحضر وتمدن،يقول:" ومن العجائب أن هذه الحضارة القائمة الآن تساندت في تكوينها وفي تلوينها عدة لغات مختلفة الأصول ولم تستطع أن تقوم بها لغة واحدة على حين أن العربية قامت وحدها ببناء حضارة شامخة البنيان ولم تستعر من الحضارات الأخرى إلا قليلا من المفردات."[14]،ولأجل المحافظة على اللغة العربية، وتشجيع تعلمها، قامت الجمعية بمواصلةإنشاء مدارس التعليم العربية"لاسيما بعد وفاة عبد الحميد بن باديس، إلّا وله في إنشائها فضل جم، وسعي دثر. ولعل أعظم هذه المدارس إطلاقا، وأعمقهاأثرا، إنما هي مدرسة دار الحديث بتلمسان التي كان له في انجازها اليد الطولى."[15]،كل هذه الجهود التي بذلها الإبراهيمي في سبيل الذود عن اللغة العربية وإعلائها، جعلت من كتاباته تساهم بقدر وفير في ترميم دعامة اللغة العربية بوصفها مكونا أساسيا من مكونات الهوية الثقافية للجزائريين،وهذا ما جعله عرضة للكثير من المضايقات، حيث قام

الاستعمار بنفيه إلى مدينة(آفلو)، ثم الزج به في السجن وتعذيبه، مما سبب له الكثير من الأمراض التي لازمته حتى وفاته.

2.2 موضوع الدين:

شكل الدين الإسلامي بجانب اللغة العربية دعامتان أساسيتان في تكوين هوية الجزائري، فالعلاقة الوشيجة بينهما تجعلهما متلازمان إن ذكر الأول حضر الثاني بوعي منّا أو بدون وعي، لذلك سعى الاستعمار إلى القضاء على هذا الدين من خلال تسهيل عمل الهيئات التبشيرية قصد تنصير الجزائريين،ومحاربته لعلماءالإسلام واضطهادهم والتضييق على نشاطاتهم، وغلق المساجد وتحويلها إلى كنائس ومستودعات، ومصادرة الأوقاف الإسلامية، ومحو كل رموز ومقدسات الدين، ولم يتوقف عند هذا الحد بل راح ينشر الخرافات والدجل مستغلا في ذلك ما تروج له بعض الزوايا الطرقية من شعوذة وخرافات، بعدما نصَّب شيوخا عليها، يخدمون المستعمر أكثر مما يخدمون المجتمع، كل هذا جعل من الإبراهيميشهر يراعه لينفث منه حمما في وجه من أراد تشويه عقيدة الإسلام السمحاء من جهة، وفي وجه المستعمر الذي أراد فرض المسيحية بالقوة على مجتمع اختار الإسلام عن طواعية، فقد أدرك أن المستعمر جاء ليملك البلاد والعباد، وفي هذا السياق جاءت خطبه وكتاباتهحول موضوع الدين والتي كان ينشرها دوريا في جريدة عيون البصائر تزاوج بين الإصلاح الديني والإصلاح الاجتماعي، لأن قوة الأخلاق من طهارة النفوس، وصحة العقيدة تؤدي إلى صحة العزيمة حيث يقول:"...ويا ويح الجاهلين– أيريدون من كلمة الإصلاحأن نقول للمسلم قل: لا اله إلا الله مذعنا طائعا وصل لربك اواها خاشعًا، وصم له مبتهلا ضارعًا وحج بيت الله أوَّابا راجعا، ثم كن ما شئت نهبة للناهب، وغنيمة للغاصب، ومطية ذلولا للراكب، إن كان هذا ما يريدون فلا ولا قرة عين–وإنما نقول للمسلم إذا فصلنا:كن رجلا عزيزا قويا عالما هاديا محسنا كسوبا معطيا من نفسك آخذا لها عارفا للحياة سباقا في ميادينها، صادقا صابرا هينا إذاأريد منك الخير صلبا إذاأردت على الشر. ونقول له إذا ما أجملنا: كن مسلما كما يريد منك القرآن وكفى..."[16]،هكذا كان ينظر الإبراهيمي إلى الإسلام، وما يجب أن يكون عليه المسلم، لأن إصلاح الفرد يبدأ بإصلاح عقيدته، وتنقيتها من الشوائب التي علقت بها، فإذا صلح الفرد صلح المجتمع، وحافظ على وجوده واستمراره، وصنع هوية تميزه عن الآخر، كما يتضمن الخطاب ردا على أقطاب الحركة الصوفية الذين استولوا على ضعفاء العقول، فجعلوا منهم أذلة ومساكين، لا

يضربون في الأرض، ولا يعطون للحياة قيمة، وهذا ما كان يهدف إليه المستعمر، فاستغل سذاجتهم وتحجر عقولهم وجعلهم يركنون إلى الذل والهوان، ليلهيهم عن الجهاد وكان له ذلك،فجاءت كتابات الإبراهيمي لتدحض أكاذيبهم، وتنزع غشاوة من الأدران غلفت عقول الناس، مبينا حقيقة المسلم الذي جعله الله خليفة في أرضه، ليعمرها ويشيّدها، ويركب الصعاب والخطوب، لصنع حضارة ومجدا، وبهذا بعث رسالة للآخر مفادها أن القيادة غاية الإسلام، ولا عزّ للمسلمين في غيره، مفوّتا الفرصة في الوقت ذاته على مشايخ الطرقية، فاضحا خططهم كاشفا نواياهم، ومبينا خطرهم على العقيدة،ومن ثمّ على الفرد والمجتمع، وفي هذا الشأن يذهب الدكتور **عبد المالك مرتاض** إلى أن" الحركة الإصلاحية ما كان لها لتنهض لو لم تسبقها الحركة الصوفية التي كانت ترسبت في النفوس، وعششت في الأمخاخ، وامتزجت بالأرواح، وأصبحت من القيم الثابتة بين الناس، والمرؤات الشائعة في سلوكهم وتفكيرهم. ولكن تلك الحركة كانت شاخت حتى هرمت، وضعفت حتىأسفت، وأصبحت كما أسلفنا القال، قائمة قبل كل شيء على الاحتيال على العامة من الناس، وضعفاء العقول من العمال والفلاحين تلتهم أرزاقهم، وتنهش أقواتهم، وتقضم معاشهم في شره شديد."[17]، ويواصل قلم الإبراهيمي التدفق والشهد ينساب منه لتتذوقه أسماع الوفود العربية والإسلامية في الأمم المتحدة، ويبقى أثره على لسان كل من يقرأ كلماته، فبعدما شخص داء التفرقة الذي ينخر جسد الأمة،وصف لهذا الجسد المريضدواء الوحدة والتكتل ممزوجا بشجاعة الاعتراف بالضعف،لأن من كتم داءه قتله على حد قول الشيخ الإبراهيمي، ليوصل بأسلوب راق حقيقة الإسلامإلى نفوس عرفت المظهر وغاب عنها الجوهر، حيث يقول:" إذا حدثتكم عن الإسلام، أو أجريته على لساني، فلست أعني هذه المظاهر الموجودة بين المسلمين، وإنما أعني تلك الحقائق التي سعد بها أصحاب محمد وأسعدوا بها العالم، تلك الحقائق التي سارت الإنسانية على هداها قرونا فما ضلت عن سبيل الحق ولا زاغت، إنما أعني تلك الآداب التي صححت العقل والفكر، وصححت الاتجاه والقصد، ووحدت القلوب والشواعر، فإن أردتم أن تستبدلوا الشقاء بالسعادة فعودوا إلى ذلك الطراز العالي المتصل بالسماء، إن السعادة منبثقة من النفوس، وإن الشقاء لكذلك، وإن إرادة الإنسان هي زمامه إلى الجنة أو النار."[18]، وبهذا تكون نظرة الإبراهيمي إلى الإسلام على أنه دستور للحياة، ومبعث للنجاة، ومقوم من مقومات هويتنا، وأن الآخر (المستعمر) يسعى إلى إبعاد المسلم عن دينه لأنه يعلم أن عزته

فيه، ليكلف علماء الإسلام بهذه المهمة "فكل عالم مسلم لا يدعوا إلى اتحاد المسلمين، ولا لإحياء حقائق الإسلام العالية، وإلى إسعاد الشرق بها–فهو خائن لدينه، ولأمانة الله عنده، وإن العالم المسلم الذي يسكت عن كلمة الحق في حينها والذي لا يعمل لإقامة الحق، ولا يرضى أن يموت في سبيل الحق–جبان، والجبن والإيمان لا يلتقيان في قلب مؤمن، إن عهد الله في أعناق علماء الدين لعهد ثقيل، وإن أمانة الإسلام في نفوس علمائه لعظيمة، وإنهم لمسؤولون عليها يوم تنشر الصحائف بهذه الدار، وفي تلك الدار."[19]، فقد حمَّل الإبراهيمي علماء الأمة مسؤولية تبليغ العقيدة الصحيحة للمسلمين، وتنقية الشوائب التي علقت بعقولهم جراء الفهم الخاطئ للدين، وما فعلته الحركة الصوفية من تشويه وتحريف لعقيدة الإسلام السمحاء، وبهذا تكون كتابات الإبراهيمي، ومن خلالها كتابات علماء الجمعية قد ساهمت في تأصيل العقيدة في النفوس، وتقوية روح الاعتزاز بالانتماء لهذا الوطن، والمحافظة على الهوية الثقافية للجزائريين، وإكسابهم مناعة هوياتية تكون لهم حصنا منيعا يحميهم من الانصهار والذوبان في ثقافة الآخر، وهو ما شهد به**عبد الكريم عثمان** بقوله:" أما في الجزائر فقد كان لجمعية العلماء المسلمين–وزعيمها عبد الحميد بن باديس ثم الشيخ البشير الإبراهيمي من بعده–وما انبثق عنها من مؤسسات مختلفة أهمها مدارس القرآن الكريم فضلها في تبني هذا الاتجاه، وقد استطاعت عن طريق مدارسها أن تحافظ على ثقافة الشعب الجزائري الأصيلة وارتباطه بالإسلام والعروبة."[02]، ولأجل أن يؤسس الإبراهيمي لخطاب ديني هادف، يحفظ به هوية الجزائري، جعل من الإنسان هدفا لخطاباته، حتى يحرك فيه شعور الانتماء، ويزيل عن قلبه ما لحق به من خرافة عمياء، فقد"خاطبت عقله بالعلم والإصلاح والوطنية وخاطبت عاطفته بالدين والخطابة والتاريخ."[21]،ولم تمرّ كتابات الإبراهيمي دون أن تثير غضب المستعمر، فضيق الخناق على جرائد ومجلات جمعية العلماء، وقام بنفيه ثم سجنه وتعذيبه، كما وجدت خطاباته مقاومة مضادة من شيوخ الزوايا الذين تعرض لهم بالانتقاد خاصة الزاوية التيجانية لما لها من امتداد خارج ربوع الوطن، ولكن كل هذا لم يمنع الإبراهيمي من تخليص العقول من أدران الطرقية، وتحرير الأمة من سطوة المستعمر.

3.2 موضوع الذاكرة الجماعية والتاريخ:

حاول الاستعمار الفرنسي قطع الصلة التي تربط الجزائريين بماضيهم، بحجة نشر المدنية في مجتمع لا تاريخ له، وذلك من خلال رفضه تعليم التاريخ

المرتبط بالعروبة والإسلام لأبناء الجزائريين، فعكّف على تدريسهم تاريخ فرنسا، حتى يوهمهم بأن أصولهم فرنسية، فيسهل التحكم فيهم في الكبر، كما سعى إلى تشويه التاريخ العربي الإسلامي حتى يطمس حقيقة أصول الشعب الجزائري، ويقوض ما يربطهم بالعالم العربي والإسلامي،" والهدف من ذلك واضح وهو محاولة إقناع الجزائريين بأن بلادهم لم تكن لها شخصية قومية في التاريخ، وأنها كانت دائما خاضعة للأجانب سواء كانوا رومانا،أوعربا، أو أتراكا،أوفرنسيين."[22]، ولما كان التاريخ أحد مقومات الهوية، فقد خصّه الإبراهيمي في كتاباته بأهمية بالغة، لما له من دور في ربط الأجيال بعضها ببعض، والمحافظة على تماسك المجتمع، فالشجرة إن قطعت جذورها سهل قلعها، وعلى هذا الأساس جاءت كتاباته ترسخ لتاريخ الجزائر المجيد، وتفضح أكاذيب المستعمر، وتصحح ما قام بتشويهه، وفي سياق حديثه عن رابطة العروبة التي تربط الجزائر بالمشرق في خطابه أمام الوفود العربية والإسلامية في الأمم المتحدة يقول:"أحييكم باسم الجزائر العربية المسلمة المجاهدة الصابرة، التي هي غصن فينان من دوحة الإسلام، وفرع ريان من شجرة العروبة، وزهرة فوّاحة من رياض الشرق، تغربت هذه الزهرة كما تغربت قبلها نخلة عبد الرحمان الداخل، فلم تشنها غربة، وما زالت متصلة بالشرق الإسلامي، تستصبح بأنواره، وتتغنى بأمجاده، وتعيش على ذكرياته، وهي على صلة بالشرق متينة، كانت ومازالت متمسكة بحبله إلى أن يرث الله الأرض وما عليها..."[23]، هكذا كانت كتابات الإبراهيميبقوة بيانها، وسحر بلاغتها وكثافة رمزها، تقف حصنا منيعا أمام محاولات عزل الجزائر عن المشرق العربي، وان كانت تقع في المغرب العربي جغرافيا،فهي في قلب المشرق وجدانا، حيث شبّه الجزائر بالدولة الأندلسية فكلاهما يقع في الغرب إلا أنهما لا تقطعان صلتهما بالشرق، والتي أشار إليه بالنخلة كرمز لصحراء الجزيرة العربية، ففصاحة أسلوبه دليل على هويته العربية، وارتباطه بالوطن العربي، وفي هذا الشأن يقول الأستاذ فاتح مرزوق:"ولعل أهم الذين برزوا في فصاحة اللسان، وقوة البيان، أمير البلاغة العلامة البشير الإبراهيمي هذا العالم اللّوذعي، والفصيح الألمعي، الذي خرّت له نواصي العرب، فدوّخ العقول قبل القلوب، وخدّر النفوس قبل تحريك الرؤوس."[24]، فالإبراهيمي يربط بين اللغة والذاكرة الجماعية من حيث أن العربية تميّز هوية الجزائريين، وتجعلهم في ارتباط بالمشرق العربي دون سواه، فلا وجود لشعب طمست لغته، فغدا كشجرة قطعت جذورها، فأصبحت هشيما تذروها الرياح، لقد كانت كتابات الإبراهيمي تحمل عبق التاريخ بين

سطورها، فيستحضر البحتري تارة، ويدعو أبا تمام تارة أخرى، دون أن ينسى الاستئناس بالجاحظ، والاستمتاع بأغاني الأصفهاني، والوقوف مطوّلا أمام مقدمة ابن خلدون، وغيرها من أمهات الكتب التي اغترف من معينها الصافي، ليعبر بها بكل فخر واعتزاز عن انتمائه للأمة العربية، ويثبت للآخرعراقة تاريخه، وأنّه يحاول عبثا القضاء على هوية شعب ارتبط بالأمة الإسلامية عقيدة، وبالوطن العربي لسانا.

خاتمة:

لقد بدأ الإبراهيمي في ترميم مقومات الهوية الثقافية للجزائريين بعدما عمد الاستعمار على هدمها وتشويهها، من منطلقمن عرف داؤه سهل دواؤه، فتطرق في كتاباته إلى موضوع اللغة وما لها من أهمية في الحفاظ على الدين الإسلامي كونها لغة القرآن من جهة، وعاملا مهمّا من عوامل تماسك أفراد المجتمع من جهة أخرى، فحثّ على تعلمها والاعتزاز بها كرمز للانتماء إلى الوطن العربي، ودعا الجزائريين إلى المساهمة في بناء مدارس التعليم العربي الحر وتعليم أبنائهم اللغة العربية،كما عرّج في خطاباته على موضوع الدين بصفته اللحمة التي تحافظ على تماسك أبناء الوطن، ومصدرا لإيقاظ الهمم من أجل تحرير الوطن من قبضة الاستعمار الغاشم، فجاءت كتاباته تحمل في ثناياها نقدا لاذعا لكل من سولت له نفسه المساس بالعقيدة السمحاء، فسلط قلمه سوطا جلد به مشايخ الصوفية الطرقية بعدما أدخلوا الدروشة والشعوذة وغيرها من العادات والشوائب التي شوهت الإسلام، مستغلين سذاجة عقول العامة من الناس، فخدموا المستعمر أكثر من خدمة الدين، ثم سخّر قلمه للكتابة في موضوع لا يقل أهمية عن سابقيه، وهو موضوع الذاكرة الجماعية والتاريخ،ليبين للآخر عراقة تاريخ الشعب الجزائري، وارتباطه الوثيق بالوطن العربي لغة، وبالأمة الإسلامية دينا، لنخلص في خاتمة بحثنا إلى نتائج عدّة نوجزها في ما يلي:

- ساهمت كتابات الشيخ البشير الإبراهيمي في المحافظة على مقومات الهوية الثقافية للشعب الجزائري،من خلال المواضيع التي كتب فيها باعتبارها تدخل في تشكيل الشخصية الوطنية الجزائرية.
- نجح الإبراهيمي من خلال كتاباته في التصدي للغزو الثقافي، وإكساب الجزائريين مناعة تحميهم من الذوبان في ثقافة الآخر.
- سعى الاستعمار الفرنسي مذ دخوله أرض الجزائر إلى طمس معالم الهوية الوطنية، وذلك من خلال منع تعليم العربية لأبناء الجزائريين،

واضطهاد علماء الإسلام، وتشويه تاريخ الجزائر، ومحاولة القضاء على الذاكرة الجماعية وما تمثله من تراث يعطي تمثيلا للحاضر، واستشرافا للمستقبل.

- لعبت كتابات الإبراهيمي دورا مهما في المقاومة الثقافية التي قامت بها جمعية العلماء المسلمين ضد المستعمر الفرنسي.
- يمكننا استخلاص الدروس والعبر من كتابات الإبراهيمي في التأصيل لهويتنا أمام الآخر، والاهتمام بالكلمة التي أصبحت في زمن العولمة تضاهي الرصاصة في قوتها، ليصبح بذلك الاستعمار الثقافي بديلا عن استعمار الأرض.

الهوامش:

(1)- محمد العربي ولد خليفة: المسألة الثقافية وقضايا اللسان والهوية،ديوان المطبوعات الجامعية،الجزائر،2003،ص:108.

(2)- عبد الله الغذامي: القبيلة والقبائلية أو هويات ما بعد الحداثة، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان،ط1، 2009، ص:48.

(3)- مصطفى حجازي: علم النفس والعولمة، رؤى مستقبلية في التربية والتنمية، شركة المطبوعات للنشر والتوزيع، لبنان، ط1، 2000، ص:152.

(4)- كامل محمدعويصة:علم النفس الاجتماعي، دار الكتب العالمية، لبنان، 1996، ص:151.

(5)-مالك بن نبي: مشكلة الثقافة، تر: عبد الصبور شاهين، دار الفكر للطباعة والنشر، دمشق، سورية، 1984، ص:74.

(6)- محمد العربي ولد خليفة: المرجع السابق، ص:13.

(7)-محمد عابد الجابري: مسألة الهوية العروبة والإسلام والغرب، مركز الدراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، 1995، ص:12

(8)- أحمد بن نعمان: الهوية الوطنية، الحقائق والمغالطات، شركة دار الأمة، الجزائر، 1996، ص:21.

(9)- التويجري عبد العزيز: الهوية والعولمة من منظور حق التنوع الثقافي، منشورات الايسكو، 1997، ص:15.

(10)- رابح تركي: التعليم القومي والشخصية الجزائرية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 1981، ص:199.

(11)- محمد البشير الإبراهيمي: آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج3، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 1981، ص:124.

(12)- محمد البشير الإبراهيمي: المرجع نفسه، ص:125.

(13)- محمد البشير الإبراهيمي: آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ج1،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 1978، ص:258.

(14)- محمد البشير الإبراهيمي: المرجع نفسه، ص:259.

(15)- عبد المالك مرتاض: الموسوعة التاريخية للشباب، محمد البشير الإبراهيمي، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 1984، ص:22.

(16)- محمد البشير الإبراهيمي: المرجع السابق، ج1، ص:216.

(17)- عبد المالك مرتاض: المرجع السابق، ص:60.

(18)- محمد البشير الإبراهيمي: المرجع السابق، ج3، ص:389.

(19)- محمد البشير الإبراهيمي: المرجع نفسه، ص:390.

(20)- عبد الكريم عثمان: معالم الثقافة الإسلامية، مؤسسة الرسالة للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط16، 1992، ص:115.

(21)- أبو بكر الصديق حميدي: دراسات وأعلام في الحركة الإصلاحية الجزائرية، دار المتعلم للنشر والتوزيع، الجزائر، 2015، ص:110.

(22)- رابح تركي: المرجع السابق، ص:333.

(23)- محمد البشير الإبراهيمي: المرجع السابق، ج3، ص:380.

(24)- فاتح مرزوق: مقال أعمال ندوة نشر في كتاب دور جمعية العلماء المسلمين في الحفاظعلى اللغةالعربية وأثره في

الهوية اللغوية،ج1، منشورات المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر، 2016، ص:151.

قائمة المصادر والمراجع:

المصادر:

01- محمد البشير الإبراهيمي: آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، ج1،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 1978.

02- محمد البشير الإبراهيمي: آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج3، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 1981.

المراجع:

01-أبو بكر الصديق حميدي: دراسات وأعلام في الحركة الإصلاحية الجزائرية، دار المتعلم للنشر والتوزيع، الجزائر، 2015.

02-التويجري عبد العزيز: الهوية والعولمة من منظور حق التنوع الثقافي، منشورات الايسكو، 1997.

03-أحمد بن نعمان: الهوية الوطنية، الحقائق والمغالطات، شركة دار الأمة، الجزائر، 1986.

04-رابح تركي: التعليم القومي والشخصية الجزائرية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 1981.

05-عبد الله الغذامي: القبيلة والقبائلية أو هويات ما بعد الحداثة، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان،ط1، 2009.

06-عبد الكريم عثمان: معالم الثقافة الإسلامية، مؤسسة الرسالة للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط16، 1992.

07-عبد المالك مرتاض: الموسوعة التاريخية للشباب، محمد البشير الإبراهيمي، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 1984.

08-فاتح مرزوق: مقال أعمال ندوة نشر في كتاب دور جمعية العلماء المسلمين في الحفاظ على اللغة العربية وأثره في الهوية اللغوية،ج1، منشورات المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر، 2016.

09-كامل محمد عويصة: علم النفس الاجتماعي، دار الكتب العالمية، لبنان، 1996.

10-محمد العربي ولد خليفة: المسألة الثقافية وقضايا اللسان والهوية،ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2003.

11-مصطفى حجازي: علم النفس والعولمة، رؤى مستقبلية في التربية والتنمية، شركة المطبوعات للنشر والتوزيع، لبنان، ط1، 2000.

12-مالك بن نبي: مشكلة الثقافة، تر: عبد الصبور شاهين، دار الفكر للطباعة والنشر، دمشق، سورية، 1984.

13-محمد عابد الجابري: مسألة الهوية العروبة والإسلام والغرب، مركز الدراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، 1995.